الدلالة الصوتية عند ابن جني
"نماذج من كتاب الخصائص".

د.فرح ديدوح
جامعة تلمسان

الملخص:

يُعدّ علم الدلالة من الموضوعات التي اهتمَّ بها الفكر الإنساني منذ القدم، وقد سبق العلماء العرب غيرهم من العلماء في الإشارة إلى الدلالة، وعدّوها عنصرا مهمّا في الدرس اللغويّ، وقد كان ابن جنّي من السبّاقين في هذا المجال بإشاراته الثاقبة إلى العديد من القضايا الدلالية في كتبه اللغوية، ونحن حدّدنا هذا البحث بكتاب الخصائص؛ حيث حاولنا تبيُّن العلاقة بين اللفظ والمعنى من مستواها الصوتي؛ وذلك من خلال بابين، هما: "باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" و"باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني".

Résumé

La sémantique des sujets fait partie des préoccupations de la pensée humaine depuis les temps, et les scientifiques arabes ont devancé d'autres en faisant référence à son importance et l'ont considérée comme un élément important dans la langue de la leçon. Ibn Jennyi était l'un des pionniers dans ce domaine en signalant avec perspicacité un grand nombre de questions sémantiques dans ses ouvrages de la langue écrite. Nous avons identité cette recherche dans l'ouvrage des caractéristiques, où nous avons essayé de démontrer la relation entre la prononciation et la signification au niveau de la voix et ce par deux portes, à savoir :
" bab tasaqub al'alfaz litasaqub almaeani
" bab 'iimsas al'alfaz 'ashibbah almaeani"

بدأ البحث في قضايا الدلالة والمعنى منذ الجيل الأول لعلماء اللغة، وإن لم يكن يشكل مجال بحث مستقل، بل كانت العديد من مسائله متداخلة مع فروع مختلفة من علوم اللغة.

وعرف البحث في الدلالة تطوّرا كبيرا مع ابن جني الذي عنى بصلة الأصوات بالدلالة عناية كبيرة، وفي كتابه الخصائص جملة من الأبواب التي تحدّث فيها عن هذه الصلة من جوانبها المتعددة، وقدمها عن سائر الدلالات الأخرى، يقول: "**اعلم أن كل واحد من هذه الدلائل معتدّ مراعى مؤثر؛ إلا أنها في القوة والضعف على ثلاث مراتب: فأقواهن الدلالة اللفظية، ثم تليها الصناعية، ثم تليها المعنوية.**" [1] والمقصود بالدلالة اللفظية: الدلالة الصوتية، وتؤدي هذه الأخيرة وظيفتها في الإفهام عادة من خلال نظام صوتي يقوم على ثلاثة أمور هامة، هي: الفونيم، النبر، التنغيم. [2]

غير أننا سنقصر الحديث عن الفونيم، وذلك من خلال بابي: "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" و"امساس الألفاظ أشباه المعاني".

1 – تصاقب[3] الألفاظ لتصاقب المعاني:

بمعنى أن تكون أصوات الحروف على سمت الأحداث التي يراد التعبير عنها، قال ابن جني في مقدمة هدا الباب: "**هذا غَوْرٌ من العربية لا يُنتصَف منه، ولا يُكاد يُحاط به، وأكثر كلام العرب عليه، وإن كان غُفلا مسهوّا عنه.**" [4]

وأورد ابن جني جملة من الألفاظ التي اقتربت دلالاتها لاقترابها فونولوجيا، مثال ذلك:

*** اقتراب الأصلين الثلاثيين:**

– **ضيّاط** [5]**وضيطار**[6]: قال: " **فقد ترى تشابه الحروف والمعنى مع ذلك واحد، فهو أشد لإلباسه، وإنما ضيّاط من تركيب ضيط، وضيطار من تركيب ضطر.**"[7]

– **لوقة ألوقة** [8]: والغالب أن تكون اللفظتان أصلان، وأن تكون الهمزة زائدة؛ أي: غير أصلية.

– **رخو ورخودّ**[9]: فاللفظتان متقاربتان في أصلهما الثلاثي، فالأولى من رخو، والثانية تركيبها من رخد، والواو فيها زائدة، يقول: "**أفلا ترى إلى ازدحام اللفظين مع تماس المعنيين، وذلك أن الرخو: الضعيف،والرّخودّ: المتثني، والتثني عائد إلى معنى الضعف، فلما كانا كذلك أوقعا الشكّ لمن ضعف نظره، وقلّ الأمر من هذا ذات يده.**"[10]

فابن جني ربط بين معنى اللفظتين، ذلك أن الشيء المثني ضعيف وليّن، وإلا لما أمكن طوْيُه وثنيه و لهذا تقارب اللفظان لتقارب المعنيين.

– **ينجوج** و**ألنجوج**[11]: يمكن أن يكون تركيب اللفظة الأولى من نجج، والثانية من لجج، والنون زائدة، والهمزة زائدة؛ لأن زيادة الهمزة أوّلا أكثر من تكرير اللام آخرا. [12]

*** اقتراب الأصلين: الثلاثي والرباعي، أو الرباعي والخماسي لتقارب المعنى،** مثال ذلك:

– **دمث** [13]**ودمثر**، و سبط وسِبَطْر[14]، الضَّبَغْطَى والضَّبَغْطَرَى[15]، ودردبيس[16].[17]

*** التقديم والتأخير في أصول الكلمة،** مثال ذلك: [ك ل م]، [ك م ل]، [م ك ل]، وكلها تدل على القوة، والشدة.[18]

فصوت الكاف في العربية من أقصى الحنك مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، مهموس وشديد[19]. واللام والميم صوتان مجهوران متوسطان بين الشدة والرخاوة.[20]

نلاحظ أن هذا البناء، اجتمع فيه الهمس الجهر، فإذا كان المهموس هو الصوت الذي يظل النفس عند النطق به جاريا، وأن المجهور هو الذي يمتنع النفس عن الجريان فيه[21] لمحنا الصعوبة والعسر في النطق؛ ذلك أنه يتوجب على الناطق في هذه الحالة أن يُعطي كل صوت حقه، بحكم التباين بين صفتيهما. وإن كان الصوت مع الكاف يَلقى سدّا؛ ذلك أنه صوت شديد، إلا أنه ما يلبث أن ينفكّ و يواصل جريانه مع اللام والميم؛ و ذلك بأن يجد لنفسه منفذا، بأن يتسرب من جنبات الفم بعد تقعّر اللسان مع اللام، و بأن يتسرب من التجويف الأنفي مع الميم بعد إطباق الشفتين، وهذا العسر في إنتاج هذه الأصوات يدلل على القوة وعلى الشدة أيضا.

ومن أمثلة الألفاظ التي اقتربت دلالاتها لاقترابها فونولوجيا أيضا:

*** ما يختلف فيه الأصلان في حرف واحد، سواء أكان فاء، أم عينا، أم لاما،** مثلا:

– **هزّ** وأزّ: في قوله تعالى:﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا** ﴾ [22]؛ أي تزعجهم وتقلقلهم، فهذا في معنى تهزهم هزا، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين. [23]

فالهمزة والهاء من مخرج واحد، يقول: "**من أسفل الحلق وأقصاه مخرج الهمزة والألف والهاء.**"[24]

ربط ابن جني توظيف الهمزة بدلا من الهاء في أزّ وهزّ، أن الأزّ يكون للحي، والهزّ للجماد[25]، فالهمزة صوت قوي مجهور وشديد، يحتاج في إنتاجه إلى جهد عضلي كبير، قال سيبويه (ت180هـ): "**الهمزة نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجا، فثقل عليهم ذلك؛ لأنه كالتّهوع.**" [26]

وقال ابن وجيه الواسطي (ت740هـ):"**لما كان الهمز يخرج من أقصى الحلق وما يليه من أعلى الصدر مشبها للتهوع والسعلة، أوجب على أكثر الناطقين به كلفة ومشقة.**" [27]

لذلك خص ابن جني لفظة أزّ للحي؛ ذلك أن الإنسان عاقل ومسئول، وفي هذه الأخيرة مشقة وتعب، في حين خُص صوت الهاء لضعفه و لِهتّه لما هو ضعيف، وللذي لا بال له؛ لذلك قال: "**وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة؛ لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز؛ لأنك قد تهزّ ما لا بال له كالجذع و ساق الشجرة، ونحو ذلك.**" [28] لذا ، أُختير الهز للصوت الأضعف وهو الهاء، فقد وصفها سيبويه بالهت لما فيها من الضعف والخفاء.[29]

– **العسف**[30] و**الأسف**[31]: يقول: "**والعسف والأسف، والعين أخت الهمزة، كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها ، والهمزة أقوى من العين، كما أن أسف النفس أغلظ من التردد بالعسف.**" [32]

إذا حاولنا أن نربط بين السمات الصوتية للحرفين وبين دلالة اللفظتين، نقول إنّ الهمزة والعين كلاهما صوتان حلقيان، فالهمزة من أقصاه والعين من وسطه، فجاءتا للدلالة عما هو دفين في النفس وعميق فيها، فجاءت الهمزة بهمسها للدلالة على أن الأسف لا يُشاهد ولا يظهر، في حين أن العين صوت مجهور، فدلّ بذلك على أنه يمكن مشاهدة فعل الظلم والجور الذي يلحق بالإنسان. كذلك فإن الشعور بالألم وبالندم ينال من النفس بقوة وبعنف، وعليه، فان وقعه أشد من معاودة الظلم والجور. ومثال ذلك أيضا:

– **قرم**[33] **وقلم**[34]: فالأولى انتقاص للجلد، والثانية انتقاص وقطع للظفر، وعليه اقتربت اللفظتان صوتيا لاقترابهما دلاليا[35]، فالراء واللام من مخرج واحد ،يتفقان في الجهر و في التوسط بين الشدة و الرخاوة.

– **ما يختلف فيه الأصلان بحرف:** ومثّل لهابن جني بـ: [36]

س **ح** ل / ص **هـ** ل / ز **ح** ر، وكلّها للدلالة على الصوت، و نلاحظ أن هذه المتقابلات الاستبدالية تشترك في الصفة و في المخرج . فالفونيمات الأولى من المثال من أصوات الصفير، والثانية من الحلق، والفونيمات الثالثة من طرف اللسان.

*** ما يختلف فيه الأصلان بالحروف الثلاثة:** وذلك في قوله: "**و تجاوزوا ذلك إلى أن ضارعوا بالأصول الثلاثة الفاء والعين و اللام.**"[37]

- **أزل** و**عصر**: تفيد معنى الحبس.[38]
- **أزم** و**عصب**: تفيد معنى المنع والشد.[39]
- **سيف** و**صوب**: السيف يصوب به.[40]

نلاحظ من الأمثلة التي ساقها ابن جني أن هذه الألفاظ تقاربت من حيث المعنى لتقارب بنائها؛ حيث أنها جاءت على الوزن نفسه، وهو الثلاثي الصحيح، كذلك تقاربت صوتيا، ففاء المثال الأول قاربت فاء المثال الثاني مخرجا وصفة، وعين المثال الأول قاربت عين المثال الثاني صفة ومخرجا، والأمر نفسه ينطبق على لام المثا.

وقد ختم ابن جني هذا الباب بقوله: "**وهذا النحو من الصنعة موجود في أكثر الكلام وفرش اللغة، وإنما بقي من يثيره و يبحث عن مكنونه، بل من إذا أوضح له و كُشِفت عنده حقيقته طاع طبعه لها، فوعاها وتقبّلها، وهيهات ذلك مطلبا، وعزّ فيها مذهبا، وقد قال أبو بكر: من عَرِفَ أَلِفَ، ومن جهل استوحش.**" [41] وهذا قريب من الملاحظة التي قدمها في أول الباب.

وفي الباب الموالي سنحاول أن نناقش بعض القضايا التي أثارها ابن جني حول المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله.

2 – إمساس الألفاظ أشباه المعاني:

يقصد بذلك أن يختص كل معنى بما يشاكِله من اللفظ، وقد نصّ ابن جني صراحة على أن أصل فكرة التقابل بين أصوات الألفاظ وما تدلّ عليه من المعاني سبقه إليها الخليل و سيبويه، يقول: "**اعلم أن هذا موضع لطيف شريف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقتّه الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحّته.**"[42]

وليس ابن جني وحده الذي تبنىّ هذه الفكرة، وإنما تردّدت في العديد من الآثار اللغوية، يقول السيوطي بعد إيراد جملة من الألفاظ التي تصبّ في هذه الفكرة: "**فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ إلى معانيها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المقتربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس، لما هو أدنى وأقلّ، وأخفّ عملا أو صوتا، وجعلت الحرف الأقوى، والأشد، والأظهر لما هو أقوى عملا، وأعظم حسّا.**"[43]

ومن القضايا التي أشار إليها ابن جني في هذا الباب:

1/ الزيادة: فكل زيادة في المبنى فهي زيادة في المعنى، ومن أمثلة الزيادة التي أوردها ابن جني:

– تكرير العين في بناء الفعل يقابله تكرير الحدث: فالعرب قد تكرّر الحرف دلالة على تكرّر الفعل، يقول: "**قال الخليل: كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدّا، فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعا، فقالوا: صرصر.**"[44]

وقال الخليل في معنى صرّ: "**صرّ الجندب به صريرا، صرصر الأخطب صرصرة، وصرّ الباب يصرّ، وكلّ صوت يشبه ذلك فهو صرير إذا امتد؛ فإذا**

كان فيه تخفيف وترجيع في إعادة ضوعف، كقولك:صرصر الأخطب صرصرة."[45]

ربط الخليل بين المد والاستمرار في صوت الجندب، وبين المد والمطّ في صوت الراء؛ الذي حدث من تشديده، كذلك فإنّ الجرْس الصوتي للصاد وللراء جاء ليحاكي معنى الصوت، فالصاد يمتاز بالصفير والراء من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة ذات الرنين العالي، فالصوتان على ذلك جاءا ليعبرا عن الصوت والتصويت، وعلل ابن جني تضعيف العين دون سواها، بقوله: "**ولم يكونوا ليضعفوا الفاء لا اللام؛ لكراهية التضعيف في أول الكلمة، والإشفاق على الحرف المضعف أن يجيء في آخرها، وهو مكان الحذف، وموضع الإعلال، وهم قد أرادوا تحصين الحرف الدال على قوة الفعل، فهذا أيضا من مساوقة الصيغة للمعاني.**"[46] وذكر أيضا أن كل زيادة في المبنى، فهي زيادة في المعنى، مثال ذلك: كسّر، وقطّع، وفتّح، يقول:" **وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني، وأقوى اللفظ ينبغي أن يُقابل به قوّة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام.**"[47]

فأصل التشديد: التكليف في تحصيل المطلوب شيئا بعد شيء.[48] والأصوات الصامتة تُمطل؛ أي تُمدّ بالإدغام والتشديد[49]، فيطول بذلك زمن النطق بها؛ لذلك جاء الإدغام والتشديد هنا ليصور لنا طول الزمن الذي يستغرق في معاودة وفي تكرر الكسر والقطع و الفتح.

ومثال ذلك أيضا المصادر الرباعية المضعفة[50] نحو: الزعزعة[51]، والقلقلة[52]، والصلصلة، فقد جاءت هذه الألفاظ مضاعفة المقطع مناسبة لدلالتها القائمة على التكرير.

وأيّده ابن الأثير(ت736هـ) وعقد بابا لهذه القضية، أسماه: "في قوة اللفظ لقوة المعنى" يقول فيه: "**اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى**

وزن آخر أكثر منه، فلا بد من أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمّنه أوّلا؛ لأن الألفاظ أدلّة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها؛ فإذا زيد في الألفاظ، أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة."[53]

وقد أكّد ابن الأثير أن دلالة التكثير والمبالغة لا تتحقق إلا إذا نُقلت اللفظة من صيغة إلى صيغة أخرى، و في هذا يقول: "**وههنا نكتة لا بد من التنبيه عليها، وذلك أن قوّة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم إلا في نقل الصيغة إلى صيغة أكثر منها، كنقل الثلاثي إلى الرباعي، وإلا؛ فإذا كانت صيغة الرباعي مثلا موضوعة لمعنى، فانه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثي إلى مثل تلك الصيغة."**[54]

ومن باب الزيادة للمعنى:

– زيادة بعض الأصوات في بنية الكلمة، وجعلها في مواضع معينة منها على نحو يحاكي دلالتها في الواقع: مثال ذلك: استسقى، واستوهب، واستمنح، ونحوهما، والزيادة في هذه الأبنية دالّة على الطلب، إلا أنها قد تكون لأغراض أخرى حسب طبيعة الفعل[55]. وعلل ابن جني هذه الزيادة بقوله: "**وذلك أن الطلب للفعل، والتماسه، والسعي فيه، والتأني لوقوعه تقدَّمه، ثم وقعت الإجابة إليه، فتبع الفعل السؤال فيه، والتسبب لوقوعه، فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة."**[56]

وقد خصّص ابن جني بابا آخر في الخصائص أسماه: "باب في قوة اللفظ لقوة المعنى"[57] ذكر فيه جملة من الألفاظ، مثال ذلك: خشُن واخشوشن، فمعنى خشُن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو، ومنه اخشوشنوا؛ أي تناهوا في الخشنة، وختمه بقوله: "**وبعد، فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني، ثم**

زيدت فيها شيء، أوجبت القسمة له زيادة المعنى به." [58] وجاء في المنصف قوله: "**ألا ترى أن الدلالة على ذلك المعنى تزول بزوال ذلك الزائد.**"[59]

2/ المصادر التي جاءت على وزن الفَعَلان، وتوالي الحركات في بنية الكلمة يقابله تواليها في الحدث: مثال الأول: النَقَزَان[60]، والغَلَيَان، والغَثَيَان، فإنها تأتي للاضطراب والحركة، وعبارة سيبويه في الكتاب: "**ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني، قولك: النَّزَوَان، والنَّقَزَان، وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع، ومثله: العَسَلاَن، والرَّتَكَان، ...، ومثل هذا الغَلَيَان؛ لأنه زعزعة وتحرك، ومثله الغَثَيَان؛ لأنه تجيش نفسه وتثور، ومثله الخَطَرَان، واللَّمَعَان؛ لأن هذا اضطراب وتحرك الحرّ وتثوّره، فإنما هو بمنزلة الغَلَيَان.**"[61] فقد جاءت المصوّتات بتواليها للدلالة على توالي واستمرار الحركة والاضطراب، وباتساع مخارجها للدلالة على اتساع الفضاء والمكان الذي تتم فيه هذه الحركة، مما يمنحها حرية أكبر.
كذلك فإن الفَعَلَى من المصادر تأتي للسرعة، نحو: البَشَكَى[62]، الجَمَزَى[63]، الوَلَقى[64]، يقول ابن جني: "**فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر– أعني باب القلقلة – والمثال الذي توالت حركاته لأفعال التي توالت الحركات فيها.**"[65]

3/ تأليف الكلمة صوتيا على نحو يوائم الأحداث التي يشير إليها: يقول: "**فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، فباب عظيم واسع، ونهج مُتْلَئبٌّ عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدِّلونها بها، ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدّره، وأضعاف ما نستشعره.**"[66] وأورد في موضع آخر قوله: "**فإن كثيرا من هذه اللغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبّر بها**

عنها."[67] ويتم ذلك بالربط بين دلالة الصوت الفيزيائية، وبين دلالته المعنوية، وهو يسمى بـ: المحاكاة التعاملية.[68]

ومن أمثلة مشاكلة الصوت للفعل:

– المشاكلة في أول الكلمة: من ذلك: **الخضم** و**القضم**، يقول: "**فالخضم لأكل الرطب، والقضم للصلب اليابس،**

فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث."[69]

بداية سنتطرق إلى مفهوم اللفظة.

منهم من جعل الخضم للأكل بأقصى الأضراس، نحو أكل القثاء ونحوه.[70] ومنهم من جعل القضم للأكل بأطراف الأسنان، والخضم للأكل بالفم كله. [71] ومنهم من جعل الخضم لأكل الشيء الواسع، والقضم لأكل الشيء اليابس.[72] وسنتقيّد ههنا بالدلالة التي خصّها بها ابن جني، فعلى رأيه، أنهم جعلوا القاف لأكل الصلب، والخاء لأكل الرطب؛ لأننا عندما نأكل شيئا يابسا أو صلبا فإننا نصدر صوتا مسموعا، وإذا حاولنا الربط بين هذا المعنى، وبين الخصائص الفيزيائية لصوت القاف، نجد أن القاف صوت مهموس شديد لهوي، متقلقل، له بعض القيمة التفخيمية، يتم نطقه برفع مؤخرة اللسان حتى تتصل باللهاة [73]، فالصوت الناتج من تقلقله، ومن اندفاع الهواء بعد انفكاك العضوين، يحاكي صوت أكل الشيء اليابس، في حين أننا إذا أكلنا شيئا رطبا فإننا لا نصدر صوتا قويا أومسموعا، وإنما يكون صوتا خافتا ضعيفا، وهذا ما قصده من العبارة الأخيرة، كذلك فان الشيء الرطب لا يحتاج في أكله إلى ضغط وقوة، وإنما إلى رفق ولين، فجاءت الخاء بلينها وامتدادها كونها من الأصوات الرّخوة[74] للدلالة على طبيعة الشيء الرطب، وبهمسها للدلالة على صوت أكله.

ومن الأمثلة التي أوردها ابن جني أيضا:

– **صعد** و**سعد:** يقول: "**فجعلوا الصاد – لأنها أقوى – لما فيه أثر مشاهد يُرى، وهو الصعود في الجبل والحائط، وجعلوا السين – لضعفها – لما لا يظهر ولا يُشاهد حسّا، إلا أنه مع ذلك فيه صعود الجَدِّ لا صعود الجسم، فجعلوا الصاد لقوتها، مع ما يشاهد من الأفعال المعالجة المتجشمة، وجعلوا السين لضعفها فيما تعرفه النفس وإن لم تره العين، و الدلالة اللفظية أقوى من الدلالة المعنوية.**"[75]

والآن سنحاول أن نربط بين السمات الصوتية لحرفي السين والصاد، وبين دلالة اللفظتين، فالصاد والسين مهموسان، يتم نطقهما بأن يلتقي طرف اللسان ومقدمه باللثة العليا، تاركا منفذا ضيقا؛ حيث يحدث الاحتكاك الذي يشبه الصفير إلا أن مؤخر اللسان يرتفع مع الصاد في اتجاه الطبق[76]، هذا الاستعلاء والإطباق يقابله الصعود في الجبل، في حين أن همس وِاستفال السين جاء ليبرز ما هو خفي وغير مشاهد في النفس، ومثاله أيضا **سدّ** و **صدّ**.

– المشاكلة في وسط الكلمة: مثال ذلك:

– **الوسيلة** و**الوصيلة:** والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة؛ ذلك أنها من الصلة؛ أي من اتصال الشيء بالشيء، في حين أن التوسل ليس له عصمة الوصل والصلة؛ لذا جعلوا لها الصاد؛ لأنها أقوى صوتا من السين، لما فيها من الاستعلاء.[77] ومثال ذلك أيضا: القِسْم والقَصْم، وقطر وقتر[78]، وقدْر[79]. فالتاء خافية مستفلة، والطاء سامية متصعدة، فاستعملتا لتناظرهما للدلالة على الطرف، والدال بينهما ليس لها صعود الطاء، ولا نزول التاء، فكانت لذلك واسطة بينهما، فعبّر عن معظم الأمر ومقابلته. [80] فالدال والطاء والتاء من طرف اللسان وأصول الثنايا،[81] وتشترك الطاء مع التاء في الهمس، وهي النظير المفخم لها؛ لذلك دلت الطاء باستعلائها على الجانب، أو الطرف العلوي، بالإضافة إلى مخرجها من طرف اللسان، والتاء باستفالها على الجانب الأسفل، ولأن الدال

تشركهما في المخرج وتخالفهما في الصفة، جُعِلت للدلالة على ما هو وسط ومساو؛ حيث أنها تساوي الطاء في الشدة و التاء في الاستفال.

– المشاكلة في آخر الكلمة: مثال ذلك:

– **نضح** و**نضخ:** فالنضح للماء الضعيف، لما فيه من رقة الحاء، والنضخ لما هو أقوى من الماء؛ لغلظها، قال الله تعالى: ﴿**فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ**﴾[82]

وقال ابن قتيبة(ت276هـ) أن النّضح هو ما ارفضّ على الثوب من البول إذا كان مثل رءوس الإبر، فان زاد على ذلك قليلا، قيل: نضخ.[83]

وقال ابن السكيت(ت 322هـ): أن النضح لما كان رقيقا مثل الماء، والنضخ لما كان غليظا.[84]

وفي لسان العرب: النضح كالنضخ، ربما اتفقا، وربما اختلفا.[85] والخاء صوت طبقي، رخو مهموس، له قيمة شبه مفخمة في بعض المواقع يُنطق برفع مؤخر اللسان ناحية الطبق، أما الحاء، فحلقي رخو، مهموس، مرقق، يتم نطقه بتضييق الحلق عند لسان المزمار[86].

من ملاحظة وتتبع السمات الصوتية للحاء والخاء وربطها بدلالة اللفظتين، نقول إن مخرج الخاء أدنى إلى الفم من مخرج الحاء، وبالتالي ، يمكن مشاهدة كيفية إنتاجه، في حين لا يمكننا ذلك مع الخاء، كذلك فإن الخاء مفخمة نسبيا في بعض المواقع؛ فجاءت هذه الصفات والسمات لتدل على علوّ مستوى الماء و كثرته. ومثال هذه المشاكلة أيضا:

– **الخذأ** و**الخذا**[87]: جعلوا الواو في خذواء؛ لأنها دون الهمزة صوتا للمعنى الأضعف، وذلك أن استرخاء الأذن ليس من العيوب التي يُسبّ بها، ولا يُتَناهى في استقباحها، أما الذلّ، فهو من أقبح العيوب، و أذهبها في المزراة والسبّ، فعبّروا عنه بالهمزة لقوتها، وعن عيب الأذن المحتمل بالواو؛ لضعفها، فجعلوا أقوى الحرفين لأقوى العيبين، وأضعفُهما لأضعفِهما.[88] فعلى رأي ابن جني،

خصوا الهمزة لقوتها وشدة ضغطها للعيب في النفس وللذل فيها، في حين خصوا الواو وهي أضعف من الهمزة للعيب المشاهد الظاهر، ولأنه من الله سبحانه وتعالى، ولا قدرة لنا في ردّه.

ومثال هذه المشاكلة أيضا:

– **قدّ وقطّ:** والقدّ للقطع عرضا؛ ذلك أن الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعا له من الدال؛ لذلك خصّوا الطاء لقطع العرْض؛ لقربه وسرعته، والدال المماطل لما طال من الأثر، وهو قطعه طولا.[89] والعلاقة ههنا واضحة، فالطاء والدال من الأصوات الشديدة أو الوقفية؛ التي تتم بالتصاق عضوي النطق التصاقا تاما يمنع معه جريان الصوت فترة من الزمن[90]، هذا الالتصاق والتماس يمثّل عملية القطع، إلا أنها في القطّ تكون أقصر؛ لأن الطاء أقصر الأصوات الشديدة زمنا، وانفجار الزمن بعد انفكاك العضوين يحاكي صوت القطع.

من الدارسين من فسّر هذه الألفاظ التي أوردها ابن جني على أنها لا تعدو أن تكون مجرد تطور صوتي وذلك بأن تكون اللفظة في الأصل واحدة، وكانت تستغل استغلالا عاما، تفيد ما خُصِّص لها من معنى، ثم حدث تطور صوتي في النطق، باهماس أحد أصواتها أو بجهرها، ومن ثم ظهرت صيغتان صوتيتان، خُصِّصت كل واحدة منهما لمعنى فرعي منبثق عن المعنى العام.[91] ويمكن أن تكون هذه الألفاظ من باب الاشتقاق الأكبر.

4/ **ترتيب أصوات الحروف في الأبنية يقابل ترتيب الأحداث والأفعال:** ذهب ابن جني بعيدا وغاص عميقا في الدلالة عندما قال: "**ومِن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع، وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبّر عنها بها ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أوّل الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سَوْقا للحروف**

على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب."[92] ومثّل لذلك بـ: "**بحث**"، قال: "**فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكفّ على الأرض، والحاء لصَحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوها إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث والبث للتراب.**"[93]

فابن جني هنا حاول أن يجعل ترتيب الأصوات في السلسلة الكلامية، إضافة إلى خصائصها وصفاتها هي المتحكمة في إعطاء دلالة الكلمة واللفظة.

*حقيقة الكف على الأرض: وهو يشبه ما في الباء من شدّة، فنحن نعلم أن الأصوات الشديدة يتم نطقها بانطباق والتقاء العضوين المسئولين في إخراجها التقاء محكما، وهذا يحاكي التماس بين الكف والأرض.

*الحاء لصَحَلها[94]: شبّه الصوت الذي يصدره الهواء عند مروره بالحنجرة حال النطق بالحاء بالصوت الذي تصدره مخالب الأسد وبراثن الذئب؛ إذا لامست الأرض.

*الثاء للنفث والبثّ: فمخرج الثاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا[95]. وبهذا، فالهواء مع الثاء يتسرب من بين الأسنان وهو نفس ما يحدث مع التراب؛ إذا حملته بيدك، فإنه يتسرب من بين الأصابع.

ونحو ذلك أيضا:

– "**شدّ**": فقد جاءت هذه اللفظة بتأليفها الصوتي للتعبير عن عمليّة شدّ الحبل؛ حيث أن إمساك الحبل وعقده في البداية يكون غير محكم، ولكن شيئا فشيئا يأخذ في الاستحكام، وهذا الذي دلّلت عليه أصوات الكلمة؛ حيث جاءت الشين برخاوتها للدلالة على عدم استحكام القبض والعقد؛ ذلك أنه مع الأصوات الرخوة يقترب عضوا النطق من بعضهما البعض، لكن ليس إلى حد الالتقاء بحيث يسمح هذا الفراغ بحدوث احتكاك، هذا الاحتكاك إضافة إلى تفشي الشين يحاكي

صوت انجذاب الحبل، ثم جاءت الدال بشدتها و مدّها للدلالة على إحكام الشدّ والجذب.

وقريب منه "**جرّ**"، قدّموا الجيم لأنها حرف شديد، وأوّل الجرّ مشقة[96]، ولعله يقصد بالجيم الشديدة: الجيم القاهرية، الخالية من التعطيش، فجاءت بهذه الشدة لتدلّل على مشقة وصعوبة الجر، ثم تلتها الراء، وهو صوت لثوي مكرّر، متوسط بين الشدة والرخاوة، يتم نطقه بأن يضرب طرف اللسان اللثة ضربات متكررة[97]، هذه الضربات والطرقات تشبه اهتزاز الحبل على الأرض وضربه لها.

الهوامش والإحالات:

1- الخصائص، ص: 697، وينظر ، السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 18.

2- ينظر، عبد الفتاح المصري، الصوتيات عند ابن جني في ضوء الدراسات اللغوية العربية والمعاصرة، مجلة التراث العربي ، ص: 263.

3- الصقب: القرب، الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، مادة: [ص ق ب]، 403/2.

4- الخصائص، ص: 403.

5- العظيم الجبين، المتمايل في مشيته، لسان العرب، مادة [ض ي ط]، 345/7 .

6- العظيم الجبين، ويقال للئيم، نفسه.

7- الخصائص، ص: 336، 403.

8-الزبدة، قال ابن الكلبي: اللوقة هو الزبد الرطب، وفيه لغتان: لوقة وألوقة، الأزهري، تهذيب اللغة، مادة: [ل و ق]، ^{8}/283.

9- اللين، وهو من الرجال: اللين العظام الرّخوها، لسان العرب، مادة: [ر خ د]، 172/3.

10- الخصائص، ص: 335 . 336.

11- هو عود طيب الريح، يتبخر به.

12- الخصائص: ص: 344.

13- الدماثة: اللين، والدمث: المكان السهل، و الدميث: السهل الخُلق، كتاب العين، مادة: [د م ث]، 44/2.

14- السِّبِطر من الرجال: هو السَّبط الطويل، والسّبِطر: الماضي، وأسد سِبطر: يمتد عند الوثبة.

15- كلمة يفزع بها الصبيان، وقيل: هو الشديد والأحمق.

16- حرزة سوداء، كأن سوادها لون الكبد؛ إذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشف مثل لون العنبة الحمراء، تتحبب بها المرأة إلى زوجها، لسان العرب، مادة: [د ر د ب]، وتقال للمرأة العجوز المسترخية، وللداهية، كتاب العين، 18/2.

17- الخصائص: ص: 395.

18- الخصائص، ص: 395، التفسير الكبير، 27/1.

19- ينظر، ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص: 60،75.

20- نفسه، 75/1.

21- ينظر، إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص: 20.

22- الآية: 83 من سورة مريم.

23- الخصائص، ص: 403.

24- سر صناعة الإعراب، 60/1.

25- الخصائص، ص: 403.

26- ينظر، سيبويه، 29/4.

27- ينظر، الواسطي ابن وجيه، الكنز في القراءات العشر، ص: 61.

28- الخصائص، ص: 403.

29- ينظر، الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، 157/3.

30- السير على غير هدى، والعسيف: الأجير، كتاب العين، مادة: [ع س ف]، 154/3.

31- الحزن والغضب، والأسيف: العبد؛ لأنه مقهور محزون، كتاب العين، مادة: [أ س ف]، 154/3.

32- الخصائص، ص: 403.

33- أن يقرم من أنف البعير جليدة؛ أي تقطع قطيعة فيبقى أثرها، كتاب العين، مادة [ق ر م]، 38/3.

34- قطع الظفر بالقلمين، كتاب العين، مادة: [ق ل م]، 426/3.

35- الخصائص، ص: 404.

36- نفسه، ص: 405.

37- الخصائص، ص: 405.

38- نفسه، ص: 406.

39- نفسه، ص: 406.

40- الخصائص، ص: 406.

41- نفسه، ص: 406.

42- الخصائص، ص: 407، والاقتراح في علم أصول النحو، ص: 17، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها،1 /49.

43- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 52/1 . 53.

44- الخصائص، ص: 407، الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 17، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 49/1.

45- كتاب العين، 390/2.

46- الخصائص، ص: 409.

47- الخصائص، ص: 409، الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 18، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 50/1.

48- شرح المراح في التصريف، ص: 46.

49- ينظر، تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص: 71.

50- الخصائص، ص:407.

51- إزالة الشيء من مثبته، وتحريكه، تهذيب اللغة، 92/1.

52- قلة الثبوت في المكان، تهذيب اللغة، 465/6.

53- ينظر، ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 56/1.

54- نفسه، 59/1.

55- ينظر، ابن جني، المنصف، ص: 100.

56- الخصائص، ص: 409.

57- نفسه، ص: 810.

58- نفسه، ص: 813 .

59- المنصف، ص: 44.

60- يقال: نقز الضبي، وثب صاعدا. تهذيب اللغة، مادة: [ن ق ز]، 583/6.

61- الكتاب ، 128/4 . 129 .

62- امرأة بشكى اليدين كجمزى: خفيفة سريعة ، ينظر ، الفيروز أبادي ، القاموس المحيط، مادة: [ب ش ك]، ص: 247.

63- الوثاب السريع، لسان العرب، مادة: [ج م ز]،100/6.

64- أسرع، والولقى كالجمزى، عدو فيه شدة، القاموس المحيط، مادة: [و ل ق]، ص: 942.

65- الخصائص، ص: 408.

66- نفسه، الخصائص، ص: 410.

67- نفسه، ص: 88.

68- الصوتيات عند ابن جني في ضوء الدراسات اللغوية العربية والمعاصرة، ص: 264.

69- الخصائص، ص: 411، والاقتراح في علم أصول النحو، ص: 18، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، 50/1.

70- كتاب العين، مادة: [خ ض م]، 418/1.

71- ينظر، ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 77.

72- ينظر، ابن السكيت، كتاب الألفاظ، ص: 482.

73- ينظر، تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص: 124.

74- مناهج البحث في اللغة، ص: 131.

75- الخصائص، ص: 413.

76- مناهج البحث في اللغة، ص: 128.

77- الخصائص، ص: 412.

78- قتر الشيء وقطره: ناحيته وجانبه، والأصل القطر، والقتر لغة فيه، لسان العرب، مادة: [ق ت ر]،72/5.

79- مبلغ الشيء، مساويه من غير زيادة ولا نقصان، لسان العرب، مادة: [ق د ر]،73/5.

80- الخصائص، ص: 413.

81- سر صناعة الإعراب، 60/1 – 75.

82- الآية : 66 من سورة الرحمن.

83- الخصائص، ص: 411، والاقتراح في علم أصول النحو، ص: 18، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، 50/1 . 51.

84- كتاب الألفاظ، ص: 393.

85- لسان العرب، مادة: [ن ض خ]،62/3.

86- مناهج البحث في اللغة، ص: 131.

87- خذي الحمار: إذا انكسرت أذنه، وأذن خذواء: رخوة، كتاب العين، مادة: [خ ذ ي]، 394/1.

88- الخصائص، ص: 88، 412.

89- الخصائص، ص: 411، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، 51/1.

90- ينظر، منصور بن محمد الغامدي، الصوتيات العربية، ص: 67، 91.

91- ينظر، كمال بشر، فن الكلام، ص: 150.

92- الخصائص، ص: 414.

93- نفسه، ص: 414.

94- بحة وخشونة في الصدر، القاموس المحيط، مادة: [ص ح ل]، ص: 1035.

95- سر صناعة الإعراب، 60/1.

96- الخصائص، ص: 414 .

97- عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص: 175.

مكتبة البحث:

القرآن الكريم.

1 – ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم (ت637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد نحي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت،1990 .

2 – إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، المكتبة الأنجلو مصرية، ط4، 1971.

3– الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي (ت370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: أحمد عبد الرحمن مخيمر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2004

4 – تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، دط، دت .

. مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1986 .

6 – ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت392هـ)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت – لبنان، 2006.

. سر صناعة الإعراب، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، أحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 2007 .

– المنصف، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1999 .

9 – الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، كتاب العين، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2003.

10 – الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن أبو علي التميمي البكري الشافعي (ت604هـ)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوقيفية، القاهرة، مصر، 2003.

11 – الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي ، وزارة الإعلام، الكويت، 1925.

12 – ابن السكيت، كتاب الألفاظ، تحقيق : فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان، 1998 .

13 – سيبويه، عمرو بن قنبر (ت180هـ)، الكتاب، تعليق: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، 1999 .
14 – السيوطي، جلال الدين (ت911هـ)، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ط2، 2006.
. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت .دط، دت .
16 . عبد الفتاح المصري، الصوتيات عند ابن جني، في ضوء الدراسات اللغوية العربية والمعاصرة، مجلة التراث العربي، العدد: 13 – 14 .
17 – العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت855هـ)، شرح المراح في التصريف، تحقيق:عبد الستار جواد، مؤسسة المختار، مصر، 2007 .
18– الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق: أبو الوفا نصر الهروبني، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط2، 2007.
19 – ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، طبعة جديدة منقحة، 2006 .
20 – كمال بشر، فن الكلام، دار غريب، القاهرة ، مصر، 2003.
21 – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دط، دت.
22 – الواسطي، عبد الله بن عبد المؤمن ابن وجيه (ت740هـ)، الكنز في القراءات العشر، تحقيق: هناء الحمصي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1998.